أوراق علمية
(177)

مركز سلف للبحوث والدراسات
www.salafcenter.com

الحجُّ بينَ وَباءَ ين الكوليرا و كورونا

إعداد
عمار محمد أعظم
باحث بمركز سلف للبحوث والدراسات

009665 565 412 942 جوال سلف

SALALFCENTER salafcenter3@gmail.com SALALFCENTER

المقَـدّمَــة:

"كانت تهدد شعوب العالم تهديدًا كبيرًا؛ مما أوجب على الدول اتخاذ عدد من التدابير... ومع بدايات القرن التاسع عشر أقامت الدول نظمًا كثيرة داخل أراضيها لمكافحة الكوليرا الفتاكة، ومن جانب آخر اختارت طريق التعاون لمواجهة عدو مرعب لا يعرف الحواجز والحدود"[1].

تلك هي الكوليرا التي اتفقت مع كورونا في كثير من الأحداث والإجراءات والحوادث والإصابات. واليوم يهدد وباء كورونا (كوفيد ١٩) شعوب العالم تهديدًا كبيرًا، واتخذت الدول عددًا من التدابير، وأقامت نظمًا كثيرة لمكافحته، واتحدت لمواجهة عدو مرعب لا يعرف الحواجز والحدود، ومن ذلك مبادرة المملكة العربية السعودية -حرسها الله- بجملة من الاحترازات والتدابير الوقائية، ومن جملتها ما قرَّرته في شأن حج هذا العام من اقتصار الحج على عدد محدود من الحجاج ممن هم بداخل المملكة من مختلف البلدان والأجناس؛ تلافيًا لأضرار الوباء.

فإن اتفقت الكوليرا مع كورونا في كثير مما سبق، فكيف كان الأمر مع الحج والحجاج؟! هذا ما سنتعرض له في هذه الورقة؛ مبينين شيئًا من الآثار والأضرار التي نجمت عن ذلك الوباء السابق.

تمهيد:

الكوليرا: عدوى حادة تسبب الإسهال وتنجم عن تناول الأطعمة أو شرب المياه الملوّثة بضمات بكتيريا الكوليرا، وهو مرض شديد الفوعة إلى أقصى حد، ويمكن أن يتسبب في الإصابة بإسهال مائي حاد، يستغرق فترة تتراوح بين ١٢ ساعة و٥ أيام لكي تظهر أعراضه على الشخص عقب تناوله أطعمة ملوثة أو شربه مياه ملوثة، وهي عدوى حادة قادرة على أن تودي بحياة المصاب بها في غضون ساعات إن تُرِكت من دون علاج[2].

---

(١) الحجر الصحي في الحجاز، جولدن صاري يلدز، ترجمة: عبد الرزاق بركات (ص: ٢٨).

(٢) ينظر موقع منظمة الصحة العالمية:

https: / /www.who.int /ar /news-room /fact-sheets /detail /cholera

ومنشأ هذا المرض هو الهند البريطانية كما كانت تسمى، وتحديدًا من نهر الغانج، ومن هناك انتقل إلى كل قارات العالم، وظهرت أول ما ظهرت في القرن الثالث عشر الهجري، وظهر في مكة تحديدًا عام ١٢٤٦هـ، يقول أحمد زيني دحلان: "وكانت تلك السنة -أي: سنة ١٢٤٦هـ- هي أول السنين التي حدث فيها ذلك الوباء بمكة، ولم يعرفه الناس قبل تلك السنة، ثم بعد هذه السنة تكرر مجيئه بمكة مرات... وكان ابتداؤه من شهر شوال من السنة المذكورة"(١).

ولم يخفت أمره في السنوات التالية، بل استمر لسنوات، بل حتى القرن الذي يليه كان مؤثرًا على مسيرة الحج والحجاج، ولا زال خطره حتى يوم الناس هذا في كثير من الدول.

الكوليرا وتدابيرها الوقائية وبروتوكولاتها الصحية:

تعالت صرخات وتكررت نداءات من المسؤولين الصحيين والأطباء في فترة وباء الكوليرا، ودق الجميع ناقوس الخطر، منادين بأخذ كل الوسائل الممكنة لتفادي إشكالات هذا الوباء، يقول أدريان بروست: "إن ما ينبغي فعله هو أن نعد العدة في حالة عودة الوباء إلى الظهور، وأن نمنع تحول الحج إلى موطن لانتشار الوباء كل عام، وبذلك نحمي أوربا. لقد أصبح من الضروري اتخاذ تدابير وقائية عاجلة، وأصبح ذلك أكثر إلحاحًا منذ أن أصبح الحجاج يسافرون على السفن البخارية"(٢).

وفي هذا العام لن يتوقف الحج تمامًا كما حصل في كثير من السنوات، وإنما قررت المملكة العربية السعودية اتخاذ تدابير وقائية وحصر الحج على أعداد محدودة جدًّا؛ وذلك لضمان سلامة الحج والحجيج وحفاظًا على صحتهم، ولا شك أن تحديد العدد وتقليصه هو من أجل إمكانية العمل بكثير من التدابير الوقائية والبروتوكولات الصحية، فهذا نصُّ البيان: "بناءً على ما أوضحته وزارة الصحة بالمملكة العربية السعودية حيال استمرار مخاطر هذه الجائحة وعدم توفر اللقاح والعلاج للمصابين بعدوى الفايروس حول العالم، وللحفاظ على الأمن الصحي العالمي، خاصةً مع ارتفاع معدل الإصابات في معظم الدول وفق التقارير الصادرة من الهيئات ومراكز الأبحاث الصحية العالمية، ولخطورة تفشي العدوى والإصابة في التجمعات البشرية التي يصعب توفير التباعد الآمن

---

(١) خلاصة الكلام (ص: ٣٠٨-٣٠٩).

(٢) مقالة له بعنوان: الحج إلى مكة المكرمة وانتشار الأوبئة، ترجمة: محمد خير البقاعي، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج١، ع١، المحرم - جمادى الآخرة ١٤٢٣هـ (ص: ٢٣٤).

بين أفرادها، لذلك فإن المملكة العربية السعودية، وانطلاقًا من حرصها الدائم على تمكين ضيوف بيت الله الحرام وزوار مسجد المصطفى صلى لله عليه وسلم من أداء مناسك الحج والعمرة في أمن وصحة وسلامة، حرصت منذ بدء ظهور الإصابات بفايروس كورونا وانتقال العدوى إلى بعض الدول على اتخاذ الإجراءات الاحترازية لحماية ضيوف الرحمن، بتعليق قدوم المعتمرين والعناية بالمعتمرين المتواجدين في الأراضي المقدسة، حيث لاقى هذا القرار مباركةً إسلاميةً ودولية لما كان له من إسهام كبير في مواجهة الجائحة عالميًّا، ودعمًا لجهود الدول والمنظمات الصحية الدولية في محاصرة انتشار الفيروس.

وفي ظل استمرار هذه الجائحة، وخطورة تفشي العدوى في التجمعات والحشود البشرية، والتنقلات بين دول العالم، وازدياد معدلات الإصابات عالميًا، فقد تقرر إقامة حج هذا العام ١٤٤١هـ بأعداد محدودة جدًّا للراغبين في أداء مناسك الحج لمختلف الجنسيات من الموجودين داخل المملكة، وذلك حرصًا على إقامة الشعيرة بشكل آمن صحيًّا، وبما يحقق متطلبات الوقاية والتباعد الاجتماعي اللازم لضمان سلامة الإنسان وحمايته من مهددات هذه الجائحة، وتحقيقًا لمقاصد الشريعة الإسلامية في حفظ النفس البشرية بإذن الله"[١].

ومن ضمن تلك المتطلبات فحص الحجاج والعاملين في المشاعر قبل وصولهم إلى المشاعر المقدسة، والتأكد من عدم إصابتهم بالوباء، واشتراط خلو الحاج من الأمراض المزمنة، وألَّا يكون من كبار السن، وإخضاع الحجاج للحجر المنزلي بعد الحج وغيرها من الإجراءات[٢].

وفي زمن الكوليرا اتخذت الجهات المعنية كثيرًا من الإجراءات والتدابير الوقائية من أجل وقاية الحجاج وضمان صحتهم وسلامتهم، ففي عام ١٢٧٥هـ ألزمت كل سفينة من السفن الناقلة للحجاج بوجود طبيب معالج بينهم؛ تلافيًا لأي إصابة بالكوليرا، وضمانًا

---

(١) وكالة الأنباء السعودية، الاثنين ٠١ ذو القعدة ١٤٤١هـ الموافق ٢٢ يونيو ٢٠٢٠م:

https://www.spa.gov.sa/2100944

(٢) المؤتمر الصحفي لوزير الحج والعمرة ووزير الصحة عن حج هذا العام ١٤٤١هـ:

https://www.youtube.com/watch?v=xgzhuGS4CS8

لسلامة البقية[1]، ولكن ذلك ما لم يجد نفعًا، فقد انتشر الوباء رغم ذلك بسبب خيانة بعض ربان السفن وكذبهم كما سيأتي، وانتشر إلى الدول الأوربية، وهو ما دفعها إلى المطالبة بعقد مؤتمر حول ذلك.

وأسفر المؤتمر عن نتائجه التي كان من أهمها جملة من التدابير الوقائية؛ كإنشاء حجر صحي كبير في مضيق باب المندب الذي يعدُّ بوابة البحر الأحمر لفحص الحجاج قبل السماح لسفنهم بدخول مياه البحر، وإقامة نقاط ومراكز للحجر الصحي على طول سواحل الحجاز، وتشكيل هيئة كاملة تعنى بالشؤون الصحية في مكة المكرمة خاصة[2].

"فإنه في العام نفسه -١٨٣٨م (١٢٥٣هـ)- شكلت وزارة الحجر الصحي تحت مسميات عديدة؛ مثل: (مجلس الحجر الصحي) و(مجلس الصحة) و(مجلس الحجر) و(مجلس الشؤون الصحية) و(وزارة الصحة)؛ بغرض ترتيب نظم الحجر الصحي وإدارة شؤونه... وفي البداية كانت إدارة الحجر الصحي تابعة لوزارة الخارجية، ولكنها انفصلت فيما بعد عن مبنى وزارة الخارجية، وصارت لفترة قصيرة وزارة مستقلة، ثم صارت شعبة تابعة لكثير من الوزارات"[3].

وشددت الدولة العثمانية الإجراءات على مكة المكرمة بعد ذلك وتحديدًا من عام ١٢٨٢هـ، وجعلت ترسل مراقبين ولجانًا متخصصة وهيئات طبية لاتخاذ الإجراءات اللازمة، والرقي بالنظام الصحي في الحج، وتفادي انتشار الوباء بين الحجاج خاصة.

"وأسفرت المناقشات التي عقدت بالمجلس الصحي في هذا الشأن عن تقسيم التدابير اللازم اتخاذها في الحجاز ثلاث مواد:

١- اتخاذ التدابير اللازمة لمنع التعفُّن في أماكن نحر الأضاحي.

٢- منع بيع المأكولات والمشروبات الضارة بالصحة في مكة والمدينة أثناء موسم الحج.

---

(١) ينظر: الحجر الصحي في الحجاز، جولدن صاري يلدز، ترجمة: عبد الرزاق بركات (ص: ٤٤).

(٢) المصدر نفسه (ص: ٤٦).

(٣) المصدر نفسه (ص: ٣١ وما بعدها).

٣- اتخاذ كافة التدابير الصحية اللازمة أثناء قدوم الحجاج وعودتهم، وخاصة إزاء حجاج الهند؛ لأنها منشأ الكوليرا"[١].

ومن التدابير الوقائية التي اتخذت في تلك الفترة فحص الأشخاص واستحداث وضع شهادة خلو من المرض في أيدي الحجاج الأصحاء، وبذلك تسنى وضع النقل البحري تحت السيطرة الصحية[٢].

ومن تلك الإجراءات الوقائية التعجيل بمغادرة الحجاج الهنود من مكة المكرمة إلى بلادهم؛ كيلا يكثروا الاختلاط بغيرهم ويتسببوا في انتشار الوباء، وعنيت الدولة العثمانية بهذا الأمر بنفسه؛ فقد أمر بتحمل نفقات عودة فقراء الحجاج من الهنود إلى بلادهم على حساب الدولة؛ وذلك من أجل إعادتهم إلى بلادهم بأقصى سرعة، والحد من انتشار الوباء، وذلك بسبب إرسال دولة الهند البريطانية الفقراء كما سيأتي[٣].

وكان الأطباء الأوربيون كثيرًا ما يؤكدون على ضرورة اتخاذ التدابير الوقائية والبروتوكولات الصحية التي تحمي الحجاج، وهو ما أكده الطبيب الفرنسي (أدريان بروست) الذي افتتحنا بمقولته هذه الفقرة.

آثار وباء الكوليرا على الحج والحجاج:

وباء الكوليرا كان أمرًا مشكلًا وعقبة كؤودًا أمام الحجاج، كما أنه في ذات الوقت هاجس مخيف للحجاج أنفسهم وللمسؤولين عن الحج، فقد تأثر كثير من أنظمة الحج وأحوال الحجاج النفسية بسبب هذا الوباء، فرغم الإجراءات والبروتوكولات الوقائية التي اتخذت من الحكومات انتشر الوباء انتشارًا شديدًا، ففي العام الأول ١٢٤٦هـ حصدت الكوليرا عددًا مهولًا من الحجاج ومن أهل مكة حتى صار الموتى في الطرقات وفي الأسواق وفي كل مكان، ورجع كثير من الحجاج من المشاعر بجمال محمَّلة بالجنائز، وليس ثمَّة من يجهِّزهم ويغسلهم ويكفنهم، وذعر الناس من ذلك، يقول السباعي: "انتشر وباء فتاك قاتل كان يصيب الناس بالقيء والإسهال ثم يقضي عليهم، وظل يعاود الناس الفينة بعد الأخرى إلى عدة سنوات، كان أهمها سنة ١٢٤٦هـ، فقد مات بإصابته فيها خلق

---

(١) الحجر الصحي في الحجاز، جولدن صاري يلدز، ترجمة: عبد الرزاق بركات (ص: ٤٨).

(٢) الحجر الصحي في الحجاز، جولدن صاري يلدز، ترجمة: عبد الرزاق بركات (ص: ٤٧).

(٣) ينظر: الحجر الصحي في الحجاز، جولدن صاري يلدز، ترجمة: عبد الرزاق بركات (ص: ١٢١).

كثير في أشهر الموسم، واشتدت وطأته في أيام منى حتى غصت الأسواق والطرقات وجعلت تحمل الموتى إليها بالجملة"[1].

وقد جلى لنا الصورة أكثر وجسَّد لنا حالة الوباء وخطورته أحمد زيني دحلان حيث وصف وصفًا أدق فقال: "وكانت تلك السنة -أي: ١٢٤٦هـ- هي أول السنين التي حدث فيها ذلك الوباء بمكة، ولم يعرفه الناس قبل تلك السنة، ثم بعد هذه السنة تكرر مجيئه بمكة مرات، لكنه ما جاء في التي بعد هذه السنة مثل هذه السنة؛ فإنه كان شديد الكثرة، مات فيه خلق كثير لا يمكن ضبطهم ولا إحصاؤهم، وكان ابتداؤه من شهر شوال من السنة المذكورة، ولم يكترث به الناس في ابتداء وقوعه ولم ينزعجوا منه، ثم إنه في النصف من شهر ذي القعدة أصاب كثيرًا من أهل مكة ومن الحجاج من كل صنف، ولم يزل يتزايد واشتد أمره في أيام منى حتى صار الموتى مطروحين في الطرقات، ونزل الناس من منى والجمال محملة من الأموات، واشتد أيضًا بمكة بعد النزول من منى، وامتلأت الأسواق والطرقات من الأموات، وعجز الناس عن تجهيزهم ودفنهم، فخرج مولانا الشريف محمد بن عون بنفسه ومعه بعض أتباعه، وصار يمر على بعض الطرقات والأسواق ويأمر الناس بتجهيز الموتى ودفنهم، وأعطاهم ما يحتاجون إليه من الأكفان، وامتلأت القبور من الأموات، فحفروا حفائر كثيرة، وصاروا يضعون في كل حفرة جملة من الأموات، وقاسى الناس من ذلك الوباء تعبًا شديدًا، واستمر ذلك الوباء إلى عشرين من ذي الحجة، ثم ارتفع شيئًا فشيئًا"[2].

وإن لم تصرح المصادر السابقة بأعداد معينة إلا أن "الأطباء الأوربيين يقررون أنه أودى بحياة خمسة عشر ألف مسلم، وقد امتدت هجمته فعبرت إيران إلى تفليس وجورجيا والكرج وتايجان، ثم أرضروم وطرابزون، وأودى بحياة خمسة عشر ألفًا في إيران، ثم انتقل إلى مصر وإستانبول بواسطة الحجاج"[3].

ولم يتوقف أمر الوباء في السنين التالية لهذه السنة، بل كان ثمة انتشار لهذا المرض ولكن ليس كهذه السنة من حيث كثرة الأضرار والأموات كما ذكر دحلان، فقد دهم الكوليرا الحجاج عام ١٢٥٢هـ، وعام ١٢٥٤هـ، وعام ١٢٥٥هـ، واشتد على الناس عام

---

(١) تاريخ مكة (٢/ ٥٨٦).

(٢) خلاصة الكلام (ص: ٣٠٨-٣٠٩).

(٣) الحجر الصحي في الحجاز، جولدن صاري يلدز، ترجمة: عبد الرزاق بركات (ص: ٤٤).

١٢٦٢هـ، وكثر الموت فيهم واستعر، ولم يكادوا يجهزوا الجنائز ويدفنوها لكثرتها، فقد توفي فيها خمسة عشر ألف حاجّ[١].

ثم ظهر بحال أخف في عام ١٢٦٧هـ وعام ١٢٧٢هـ وعام ١٢٧٣هـ، وفي عام ١٢٧٥هـ ألزم الربان بتوفير الأطباء في السفن، ولكن بسبب عدم التزام ربان السفينة البريطانية الآنفة الذكر انتشر الوباء في ١٢٧٦هـ.

وعن تاريخ الحجر الصحي في مكة المكرمة يقول الصباغ: "وأول حدوثها بمصر سنة ١٢٥٢هـ، ثم انتشرت في سائر البلاد إلا بلاد الهند، فتركوها حيث لم يحصل منها إفادة، وأول حدوثها بجدة ومكة سنة ١٢٨٠هـ، ولم نسمع أحدًا من المتقدمين الحكماء ذكر الكرنتينة إلا حكماء الأوربا في هذا القرن الثالث عشر هم الذين أحدثوها. ومعنى الكرنتينة على ما ذكره صاحب كنوز الصحة: أعني أن الأشخاص المظنون فيهم ذلك يمكثون أربعين يومًا في محل وحدهم لا يخالطهم أحد معرضين للهواء"[٢].

ويقول البنتوني: "وهذه الكورنتينات كلها لم يكن الغرض منها الحجر على الحجاج؛ لأن سفرهم من وإلى مكة كان على طريق البر، وكانوا يفتكرون أن طول مسافة هذا السفر مطهرة لهم من الأوبئة، إلا أن شدة كوليرا سنة ١٨٥٨م في بلاد الحجاز جعلت أغلب الناس يفر منها إلى مصر من طريق البحر على القصير، فاحتاطت الحكومة المصرية لهذا الأمر، وضربت الحجر على الحجاج لأول مرة في بئر عنبر في وسط المسافة بين القصير وقنا، أما الحجاج الذين سافروا مع القافلة عن طريق العقبة، فإنها منعتهم من الدخول إلى السويس، وضربت عليهم الحجر في عجرود.

ومن هذا العهد رأوا ضرورة إقامة محجر صحي في الطور، إلا أن مؤتمر القسطنطينية رأى الاستعاضة عن الطور بالوجه؛ لأن سواد الحجاج كان يسافر عليه برًّا، واستمر الحجر فيه أو في رأس ملعب على ركاب القوافل، وفي الطور أو عيون موسى على ركاب البحر كلما كانت تقضي بذلك الضرورة إلى سنة ١٨٧٧م التي من ابتدائها كثر سفر الحجاج من طريق البحر، وهنالك أخذت الحكومة المصرية في إكمال الاستعدادات في الطور حتى صارت في سنة ١٨٩٣م وافية بالغرض منها"[٣].

---

(١) الحجر الصحي في الحجاز، جولدن صاري يلدز، ترجمة: عبد الرزاق بركات (ص: ٢٣).

(٢) تحصيل المرام (٢/ ٨٨٧).

(٣) الرحلة الحجازية (ص: ٣٠٦ وما بعدها).

ثم عام ١٢٨١هـ وفيه انتشر انتشار النار في الهشيم، بل وخرج الأمر عن السيطرة حيث امتد أثره إلى مصر ومن ثم إلى دول أوربا، "ففي عام ١٨٦٥م ظهرت بالحجاز كوليرا شديدة لم ير مثلها حتى ذلك التاريخ، واستمر فتكها من ٢٦ مارس حتى ٢٤ أبريل، وراح ضحيتها عدد مهول غير محدد على وجه الدقة، وإن كانت هناك روايات أنه يراوح بين خمسة عشر ألفًا وثلاثين ألفًا، وفي موسم الحج الأكبر عام ١٨٦٥م بلغ عدد الحجاج أربعة أضعاف العدد في الأعوام السابقة، وتجاوز مائة وخمسين ألفًا، وبلغ الازدحام مبلغه في ذلك الحج الأكبر، وشح القوت والعلف، فزهقت أرواح الكثيرين بفعل الزحام وليس بفعل الوباء"[١].

"ويعد وباء ١٨٦٥م (١٢٨١هـ) إحدى موجات الكوليرا المهمة، فقد انتقل هذا الوباء عن طريق البحر من بومباي إلى مكة، وكان الوباء الذي استمر من عام ١٨٦٥م (١٢٨١هـ) حتى عام ١٨٧٣م (١٢٨٩هـ) وامتد من البحر الأحمر إلى البحر المتوسط والبحر الأسود سببًا في هلاك كثير من الأوربيين، ولم يكتف بزلزلة أوربا بل وصل حتى أمريكا"[٢].

وعن هذا الوباء وسببه يقول صاحب إفادة الأنام: "وفي سنة ١٢٨١هـ كان الوباء بمكة، وابتداؤه ثاني يوم النحر، واستمر سبعة أيام، وكثر الموت جدًّا إلى أن بلغ من يموت في اليوم نحو الألف، ثم انتقل إلى مصر عند وصول الحجاج، وكذا إسلامبول وبلاد الترك وبلاد النصارى، فأجمع الحكماء أن هذا من كثرة العفونة بمنى ومكة، فبسبب ذلك يتغير الهواء فيحصل في الأمزجة ويحصل الوباء ويموت الخلق... ووصل الأوامر إلى مكة في شوال، فشرعوا في تنظيف مكة ومنى، وبنوا بها نحو خمسمائة كنيف، وكذلك جعلوا محلات تذبح فيها الهدايا، وكان قبل ذلك تذبح في أي مكان"[٣]. وعن الحال الحاصلة بعد ذلك يقول صاحب تحصيل المرام: "وكذلك جعلوا محلات تذبح فيها الهدايا، وكان قبل ذلك تذبح في أي مكان، وترمى وتبقى رائحتها منتنة يتضرر منها الناس، فحصلت نظافة في غاية ما يكون، ووسعوا الطرق، وحصل للناس راحة من جهة العفونة"[٤].

---

(١) الحجر الصحي في الحجاز، جولدن صاري يلدز، ترجمة: عبد الرزاق بركات (ص: ٤٤).

(٢) الحجر الصحي في الحجاز، جولدن صاري يلدز، ترجمة: عبد الرزاق بركات (ص: ٢٤).

(٣) إفادة الأنام بذكر أخبار البلد الحرام، عبد الله الغازي (٢/ ٤٥٨).

(٤) تحصيل المرام، محمد الصباغ (٢/ ٨٨٥).

ومن ثم عقد المؤتمر الصحي العالمي لمناقشة أمر وباء الكوليرا في الحج في إسطنبول عام ١٢٨٢هـ، وعمل بالتوصيات والتقارير الصادرة عن المؤتمر، وازدادت الإجراءات شدة، ولكن الوباء لم يتغير حاله، بل ازداد هو أيضًا سوءًا واستعارًا، فقد نقل الحجاج الوباء في العام الذي يليه إلى بلدانهم ومناطقهم، "ففي إبريل من عام ١٨٦٧م (١٢٨٣هـ) انتشرت مع الحجاج العائدين حتى بلغت البنجاب وكشمير وأفغانستان وإيران وبحر قزوين، وحتى عام ١٨٦٩م (١٢٨٥هـ) بلغت الكوليرا روسيا"[١].

إذن ظهر الوباء بقوة بين موسمي الحج عام (١٢٨٨هـ) وعام (١٢٩٣هـ) وفي الفترة من (١٢٩٦هـ) حتى (١٣١٠هـ) -وهي فترة الخراب الأكبر في الحجاز- ظهرت الكوليرا مرات، في أعوام: (١٢٩٦هـ)، و(١٢٩٧هـ)، و(١٢٩٨هـ)، و(١٣٠٧هـ)، و(١٣٠٨هـ)، و(١٣١٠)، "ولعل الذي ساعد على هذا الظهور المكثف هو تلك السرعة الكبيرة التي تحققت في وسائل الانتقال بالطرق البحرية، والزيادة العامة في أعداد الحجاج الناجمة عن ذلك، وكذلك الزيادة الكبيرة في أعداد الحجاج الفقراء والمتسولين الذين كانوا بمثابة مجموعة ناقلة للمرض"[٢].

ففي عام ١٢٨٨هـ ابتلي الحجاج بالوباء أيضًا رغم تلك الاحتياطات التي اتخذت، "إلا أنه لم يمت به أحد، مع أنه عمَّ جميع من بمكة إلا ما كان نادرًا من الناس، ثم انقطع آخر ذي الحجة، وعند توجه الحجاج إلى المدينة في ذي القعدة من التاريخ أصابهم الوباء، وهو معهم إلى أن خرجوا من المدينة، وانقطع عنهم عند رجوعهم إلى مكة، وكذلك انقطع من المدينة، ثم رجع إلى مكة بعد نزول الناس من منى إلى مكة نحو خمسة أيام، لكنه شيء خفيف، ثم عند توجه الحجاج إلى المدينة بعد الحج أصابهم الوباء، واستمر معهم إلى المدينة وعند خروجهم انقطع"[٣].

يقول السباعي عن الحال في عام ١٢٨٨هـ: "وفي هذا العهد انتشر بعض الوباء في المدينة، وكان فيها زوار الرجبية من أهل مكة، فلما عادوا حجزتهم الحكومة في كرنتينة أعدتها بالزاهر، وذلك في عام ١٢٨٨هـ"[٤].

---

(١) الحجر الصحي في الحجاز، جولدن صاري يلدز، ترجمة: عبد الرزاق بركات (ص: ٢٤).

(٢) الحجر الصحي في الحجاز، جولدن صاري يلدز، ترجمة: عبد الرزاق بركات (ص: ١٣٩).

(٣) تحصيل المرام، محمد الصباغ (٢/ ٨٩٦).

(٤) تاريخ مكة (٢/ ٦٠٧).

وبسبب ذلك عرف في مكة وفي موسم الحج تحديدًا الحجر الصحي قديمًا، ويرد في كتب تاريخ مكة ذكرها كثيرًا، والتي كانت تسمى (الكرنتينة) وأصلها باللغة الإيطالية، وهي كما عرفها عاتق البلادي: "محجر صحي يحجز فيه القادمون من بلد يخشى انتشار الأوبئة فيه، ويعطى تطعيمات مضادة، ثم يبقى مدة مقررة طبيًّا، ثم يفرج عنه"[1].

ومن ذلك ما حصل في عام ١٢٨٨هـ حيث عمَّ الناس وباء بالمدينة المنورة، وانتقل عدواه إلى مكة المكرمة، فأشار الأطباء بعمل حجر صحي على الحجاج القادمين من المدينة، وقد تم بناؤه بالفعل في منطقة الزاهر المعروفة اليوم شمال مكة المكرمة، يقول المؤرخ عبد الله الغازي: "وفي سنة ١٢٨٨هـ كان بمدينة خير الأنام عليه أفضل الصلاة وأتم السلام وباء قدم أصله من مدينة خيبر، حتى مات جملة من الزوار في شهر رجب من أهل مكة وغيرهم، فصدرت أوامر الدولة العلية والمصرية بإرسال حكماء الصحة لعمل كرنتينة على القادمين في تلك الأباطح المعطرة بوادي الزاهر من أرض مكة المشرفة"[2].

ففي عام ١٢٩٣هـ دهم الوباء الحجاج في شهر ذي الحجة قبيل عيد الأضحى بعدة أيام، وتسبب في وفاة عدد كبير من الحجاج في منى، وحين رجعوا إلى مكة انهمر مطر غزير تسبب في زيادة نسبة الوفيات، وبرغم هذا فإن هذا الوباء يعد من الأوبئة الخفيفة، وأشد منه وباء سنة ١٢٩٦هـ، وتسبب في انتقاله سفينة إنجليزية كانت تحمل الحجاج الهنود إلى جزيرة قمران، وبعد حجزها ٤٧ يومًا منحت براءة نظافة، واحتجزت أيضًا سفينة كولومبية ترفع العلم الإنجليزي عشرة أيام، ومنحت براءة نظافة صحية، فالأولى نقلت الكوليرا إلى قمران، والثانية نقلتها إلى الحجاز، ولوجود شهادة براءة نظافة أخفى ربان السفينة وجود الكوليرا لمدة خمسة عشر يومًا.

وفي عام ١٢٩٧هـ بلغت الوفيات ٤٤٢١ فردًا؛ مما جعل الدولة تشدد في اتخاذ التدابير العاجلة للقضاء على المرض، وجُهِّز مستشفى مؤقت يتسع لألف مريض.

وأما في عام ١٣٠٧هـ فقد ظهرت الكوليرا في ثاني أيام العيد، وفيها كثر الموت في الحجاج، وتوفي قريبا من عشرة آلاف شخص من الحجاج[3].

---

(١) معجم الكلمات الأعجمية والغريبة، عاتق البلادي (ص: ٩١).

(٢) إفادة الأنام بذكر أخبار البلد الحرام (٢/ ٤٦٠). وينظر: تحصيل المرام، محمد الصباغ (٢/ ٨٩٥).

(٣) الحجر الصحي في الحجاز، جولدن صاري يلدز، ترجمة: عبد الرزاق بركات (ص: ١٤٧).

وإن كانت الكوليرا قد خمدت في موسم الحج في تلك السنوات الماضية نوعًا ما، إلا أنها عادت مستعرة عام ١٣١٠هـ، فالوباء الذي حصل فيه هو أكبر وباء وأشده ظهر في تاريخ الحجاز، وفي الوقت الذي كان يتوقع فيه تزاحم الحجاج تطاير خبر ظهور الوباء في قمران، ثم في مكة، وفجع الناس بما حصدت من الأرواح الكثيرة. جاء في كتاب الحجر الصحي في الحجاز: "وأمام زيادة عدد المتوفين في ثاني أيام العيد أصدر الشريف عون الرفيق باشا أوامره بمغادرة قوافل الحج في ثالث أيام العيد دون التزام أصول الشرع الذي يوجب البقاء في منى ثلاثة أيام، وذلك بناء على طلب القسم الصحي. ومع عودة الحجاج بدأت الكوليرا في الانتشار في كل أنحاء مكة، وكانت جثث الضحايا تلقى في المقبرة متراكمة بعضها فوق بعض دون غسل؛ نظرًا لهروب فريق من مغسلي الموتى ووفاة الفريق الآخر، كما أدى فرار المسؤولين عن دفن بقايا الأضاحي إلى بقائها مدة يومين معرضة لأشعة الشمس... وقام قائد الفرقة العسكرية في الحجاز الفريق عثمان باشا الديار بكري وجنوده بدفن بقايا الأضاحي وما كاد يغادر منى ثالث أيام العيد حتى أصيب وتوفي... وهناك تقديرات متفاوتة لأعداد الضحايا فيذكر الدكتور بروست أن عدد القتلى بلغ ٤٠٠٠٠ شخص، بينما يرى مسؤول الصحة في مكة أنها كانت ٣٠٣٣٦ شخصًا"[١].

وعن أثر وباء الكوليرا عام ١٣١٠هـ يقول الطبيب أدريان بروست: "لقد بلغت نسبة الذين ماتوا في الحجاز من الجزائريين ٤٠٪، ويقال: إن النسب الرسمية لعدد الموتى من الحجاج في مكة وجدة ينبغي أن يزاد عليها نسبة كبيرة بمعامل يبلغ ثلاث مرات كما يقول بعضهم، وخمس مرات كما يقول آخرون. لقد كانت شوارع مكة المكرمة وجدة في عام ١٨٩٣م (١٣١٠هـ) تغص بالموتى، ولم يكن عدد العاملين على حملهم كافيًا، وكانت البيوت وزوايا الشوارع مليئة بالمرضى الذين لا يجدون أطباء لمعالجتهم ولا أدوية. وكنا نجد في الصحراء المحيطة بجدة بعض الحجاج المرضى الذين تخلّفوا عن الركب أو الذي ألقى بهم مرافقوهم من على ظهور الجمال"[٢].

---

(١) الحجر الصحي في الحجاز، جولدن صاري يلدز، ترجمة: عبد الرزاق بركات (ص: ١٥١ وما بعدها) بتصرف.

(٢) مقالة له بعنوان: الحج إلى مكة المكرمة وانتشار الأوبئة، ترجمة: محمد خير البقاعي، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج١، ع١، المحرم - جمادى الآخرة ١٤٢٣ه (ص: ٢٤٤).

ومن أسباب انتشار الوباء بعض أعمال البر غير الموفقة وغير المخطط لها تخطيطًا كاملًا؛ وذلك أن بعض أثرياء الهند كانوا يتحملون عن الفقراء نفقة الطريق دون نفقة السكن والأكل وغير ذلك، فيتسبب هؤلاء في إحداث المخلفات والقاذورات؛ لأنهم من طائفة المتسولين غير المبالين بالنظافة بطبيعة الحال؛ وهذا ما يصرح تقرير القنصلية البريطانية حيث جاء فيها: "إن أعمال البر والإحسان التي يرغب أثرياء الهنود في القيام بها عن طريق إرسال مجموعات من الفقراء إلى الحج كل عام هي أعمال ليست في غير محلها فحسب، بل إنها أعمال محبطة للهمم، حيث يتم دفع أجرة السفر أو التمويل له فقط، وهنا ينتهي دور المحسن. إن هؤلاء الأفراد من الحجاج الذين ينتفعون بها هم من طائفة المتسولين الذين يزعجون المسافرين المرافقين لهم خلال رحلة القدوم، ويطلبون منهم إمدادهم بالخبز اليومي، وبعد أن ينزلوا لا يكفون عن التسول خلال موسم الحج... وهم السبب فيما تلقيه علينا السلطات المحلية من لوم كل عام، في تذكيرنا بأن جميع القاذورات الملقاة في المدن هي بسبب الحجاج الهنود، وأن القاذورات الموجودة في مساكن هؤلاء الحجاج هي السبب في انتشار الأمراض"[1].

وهو ما أجبر الدولة العثمانية على تدبير تعجيل مغادرتهم من مكة المكرمة إلى بلادهم؛ كيلا يكثروا الاختلاط بغيرهم ويتسببوا في انتشار الوباء، وعنيت الدولة العثمانية بهذا الأمر بنفسها؛ فقد أمرت بتحمل نفقات عودة فقراء الحجاج من الهنود إلى بلادهم على حساب الدولة؛ وذلك من أجل إعادتهم إلى بلادهم بأقصى سرعة والحد من انتشار الوباء[2].

وكان لتدني الأوضاع والتنظيمات الصحية دور لا يمكن إنكاره في تفشي هذا الوباء، سواء من جهة الكوادر والإمكانيات، أم من جهة وعي الحجاج، أم من جهة وعي العاملين على خدمة الحجيج والمجتمع المسلم بأسره، ومن ذلك على سبيل المثال: محدودية النظافة، وصعوبة توفر الماء عامة والماء النقي على وجه الخصوص، وتعفُّن الذبائح التي

(١) وباء الكوليرا في الحجاز حج عام ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م من خلال تقرير القنصلية البريطانية في جدة، د. سلوى الغالبي، مجلة دارة الملك عبد العزيز، ع ٣، السنة ٣٨ (ص: ٢٥٦).

(٢) ينظر: الحجر الصحي في الحجاز، جولدن صاري يلدز، ترجمة: عبد الرزاق بركات (ص: ١٢١).

ترمى في الطرقات، وعدم وجود المراحيض الصحية وغيرها[1]، ولا شك أن قلة الوعي لدى المجتمع هو من أكبر أسباب انتشار الأمراض وتفشيها فيهم، فإن الحكومة وإن كانت قد نظمت وشرعت كثيرًا من التدابير والإجراءات الوقائية وبذلت في ذلك الجهود، إلا أن ذلك لم ينعكس بالصورة المرجوة على الحجاج والأهالي، وخاصة على من كان يسكن منهم في مكة والمدينة وجدة، فلم يأخذ كثير منهم تلك الإجراءات مأخذ الجد، ولم يبال آخرون منهم، بل انقضَّ منهم من انقضَّ لمعارضة تلك التدابير والإجراءات، وينفي جدواها، ويسفِّه المنظِّرين والقائمين عليها، وراح يجاهر بذلك! فتارة يسخر من أعمال الحجر الصحي، وتارة يسخر من إجراءات التعقيم والتبخير، بل أدَّى الأمر إلى قتل بعض المسؤولين في سبيل الاعتراض على تلك الإجراءات الوقائية[2]، ناهيك عن تساهل المطوفين والموظفين وإخفائهم لبعض المصابين هروبا من الحجر الصحي[3]، وينبه البنتوني إلى طرف من ذلك وهو تساهل المسؤولين في المحاجر الصحية، ونجم عنه انتشار الوباء حيث يقول: "ومما يجدر بنا ذكره أن الكوليرا لم تظهر في مكة إلا سنة ١٢٤٦هـ، أي: في نحو سنة ١٨٢٥م، وفدت إليها مع حجاج الهند، ولا تزال تفد إليها معهم، ولو كانت الحكومة تعتني بشدة الحجر على حجاج الهنود والجاوة في جزيرة قمران قبل دخولهم إلى جدة بزمن لأمكنها الحيلولة بين حجاج بيت الله الحرام وهذا الداء الوبيل، والأوبئة الكبيرة التي حصلت بمكة في زمن الحج وفتكت بالحجاج فتكًا ذريعًا كانت في سنة ١٨٩٠م، وسنة ١٨٩٢م، وسنة ١٨٩٣م، وسنة ١٨٩٥م، وسنة ١٩٠٢م"[4]، هذا غير جشع أصحاب الأعمال والمكاسب في الحج كشركات النقل وغيرهم كما مرَّ معنا شيء من ذلك.

---

(١) ينظر: رحلات إلى شبه الجزيرة العربية، جون لويس بيركهارت، ترجمة: هتان عبد الله (ص: ٢٠١ وما بعدها)، جدة خلال الفترة ١٢٨٦-١٣٢٦هـ، دراسة تاريخية وحضارية في المصادر المعاصرة، صابرة مؤمن إسماعيل (ص: ١٤٩ وما بعدها).

(٢) الحجر الصحي في الحجاز، جولدن صاري يلدز، ترجمة: عبد الرزاق بركات (ص: ٢٥٣ وما بعدها).

(٣) وباء الكوليرا في الحجاز حج عام ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م من خلال تقرير القنصلية البريطانية في جدة، د. سلوى الغالبي، مجلة دارة الملك عبد العزيز، ع ٣، السنة ٣٨ (ص: ٢٤٣).

(٤) الرحلة الحجازية، محمد البتنوني (ص: ٦٣ وما بعدها).

ومن أهم الآثار التي نجمت عن وباء الكوليرا بعد الحج أنه تسبب في انتشار الوباء للعالم بأسره، وذلك بسبب كذب وخيانة أحد ربان السفن البخارية البريطانية (سيدني) والتي كانت عائدة بالحجاج من جدة إلى قناة السويس في عام ١٢٨٢هـ؛ فقد أدلى الربان ببيانات وتصريحات كاذبة طمعًا منه في دخول ميناء السويس؛ ولم يصرح بظهور الكوليرا في ركاب السفينة مع أنه قد فشا في الركاب معه في السفينة، بل وتوفي عدد من المصابين على متن السفينة أثناء الرحلة، ولم يمر يومان على وصول تلك الرحلة إلى ميناء السويس حتى فشا الوباء واستعر في مصر كلها، وحصدت منها وحدها ستين ألف شخص خلال ثلاثة أشهر، ثم اجتاح أوربا وآسيا الصغرى ونيويورك وغوادلوب، ولم يختف إلا في عام ١٢٩١هـ[١].

وزاد الهم أن أعداء الإسلام استغلوا هذا الوضع للضغط على المسلمين للتدخل في دولتهم وشئونهم الداخلية بدعوى أن الأماكن المقدسة وماء زمزم هو مصدر الوباء!

فادعت بريطانيا في تقاريرها القنصلية أن "منى هي موطن الكوليرا في موسم الحج، ويحملها الحجاج معهم عند انتقالهم بين المشاعر، وعودتهم من منى إلى مكة وإلى بلادهم"[٢]. وفي موضع آخر يذكر صاحب التقرير: "إن الالتزام بتنفيذ قواعد الحجر الصحي بصرامة هذا العام آتى ثماره، فقد ثبت خطأ الفكرة التي تقول: إن الكوليرا تأتي مع الحجاج الهنود، وهو ما كتبته في تقرير العام الماضي أن الكوليرا موطنها منى، إن الأوضاع الصحية في كل من منى ومكة سيئة إلى أبعد الحدود في كل عام"[٣].

وهكذا "شهد تاريخ الحجاز الصحي في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ونهاية القرن العشرين صراعًا بين الدول الاستعمارية عمومًا، وبريطانيا على وجه الخصوص، وبين الدولة العثمانية التي كانت تعاني من أزمات اقتصادية وسياسية خانقة، وكانت

---

(١) ينظر: مقالة له بعنوان: الحج إلى مكة المكرمة وانتشار الأوبئة، ترجمة: محمد خير البقاعي، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج١، ع١، المحرم - جمادى الآخرة ١٤٢٣هـ (ص: ٢٣٤)، الحجر الصحي في الحجاز، جولدن صاري يلدز، ترجمة: عبد الرزاق بركات (ص: ٤٤).

(٢) وباء الكوليرا في الحجاز حج عام ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م من خلال تقرير القنصلية البريطانية في جدة، د. سلوى الغالبي، مجلة دارة الملك عبد العزيز، ع ٣، السنة ٣٨ (ص: ٢٣٩).

(٣) وباء الكوليرا في الحجاز حج عام ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م من خلال تقرير القنصلية البريطانية في جدة، د. سلوى الغالبي، مجلة دارة الملك عبد العزيز، ع ٣، السنة ٣٨ (ص: ٢٤٤).

بريطانيا تسعى لتجد لها موطئ قدم في الحجاز؛ لاستغلال المكانة الإستراتيجية والاقتصادية لتلك المنطقة المقدسة، واتخذت من الجانب الصحي وظهور موجات الكوليرا ذريعة لذلك؛ فادعت أن الحجاز موطن الكوليرا، وأن ماء زمزم هي أكبر مصدر للوباء، وأن هدي الحجاج في منى يتعفن ويسبب انتشار الأمراض والأوبئة"[1].

يقول أدريان بروست: "لقد واصلت في عام ١٨٩٤م (١٣١١هـ) نسبة الوفيات الارتفاع بين الحجاج الذين يقيمون في المدينة المقدسة، وقد عزي سبب ذلك في البداية إلى حمى الضنك، إلا أنه تبين فيما بعد بأن سبب ذلك هو الالتهاب المعوي (الكوليرا)، وقد بحث الأطباء الموجودون في مكة المكرمة عن سبب الالتهاب، واعتقدوا أنهم وجدوه في تلوث الماء الذي يشربه الحجاج، ولم يكن ذلك الماء الذي سبب الالتهاب إلا ماء زمزم الماء الذي يتبرك به الحجاج"[2].

ولم ينته الأمر بهذه الاتهامات، بل اتخذت هذه الشعيرة العظيمة وسيلة يتراشق من خلالها أعداء الإسلام سهامهم، فقد انتدبت فرنسا للرد على تلك الاتهامات البريطانية ممثلة في الطبيب الفرنسي (أخيل - أدريان بروست) الذي كتب مقالًا بعنوان: الحج إلى مكة المكرمة وانتشار الأوبئة، ومما قال فيه: "إن الكوليرا لم تنشأ قط في الحجاز، وإنما يحملها معهم الحجاج القادمون إليه، وعلى رأسهم الهنود الذين هم مواطنون بريطانيون، وإنه ينبغي على بريطانيا التي تشكو من الوباء اتخاذ الحيطة والاهتمام بصحة حجاجها، بدل أن تركز اهتمامها على الجوانب التجارية بغض النظر عما يحيق بالبشر من أخطار"[3].

الخاتمة:

لئن فات كثيرًا من المسلمين فضل الحج وأجره، فإنه لم يفتهم كثير مما في شهر الحج من الفضائل والمكرمات، والتي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم: «**ما العمل في أيام**

---

(١) الحجر الصحي في الحجاز، جولدن صاري يلدز، ترجمة: عبد الرزاق بركات (ص: ١٧٠ وما بعدها).

(٢) مقالة له بعنوان: الحج إلى مكة المكرمة وانتشار الأوبئة، ترجمة: محمد خير البقاعي، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج١، ع١، المحرم - جمادى الآخرة ١٤٢٣هـ (ص: ٢٤٧).

(٣) مقالة له بعنوان: الحج إلى مكة المكرمة وانتشار الأوبئة، ترجمة: محمد خير البقاعي، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج١، ع١، المحرم - جمادى الآخرة ١٤٢٣هـ (ص: ١٤١ وما بعدها).

أفضل منها في هذه؟» قالوا: ولا الجهاد؟ قال: «**ولا الجهاد، إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله، فلم يرجع بشيء**»[1].

فعلى المسلم أن يحرص على الاجتهاد في طاعة الله تعالى في هذه العشر المباركة، عسى أن يكتبه الله تعالى مع الفائزين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) أخرجه البخاري (٩٦٩).